مائة قصيدة حبّ أرمنيّة

ناهابيد كوجاك
ترجمة : مهران ميناسيان

Bibliotheca Alexandrina
0111177

حبّة الرّمان

مائة قصيدة حبّ أرمنيّة

* سلسلة روائع الأدب الأرمني ـ 4
* حبّة الرّمـان ـ مائة قصيدة حبّ أرمنيّة
* ناهايد كوجاك
* ترجمة: مهران ميناسيان
* مراجعة وتقديم: ابراهيم الخليل
تصميم الغلاف: أرداشيس هامبارتسوميان
* الطبعة الأولى 1999
* جميع الحقوق محفوظة للناشر
* الناشر:

دار الحوار للنشر والتوزيع

ص.ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ اللاذقية ـ سورية

نادي الشبيبة السورية ـ اللجنة الثقافية

حلب ـ ص.ب: 3699 ـ سورية

ناهابيد كوجاك

حبّة الرّمان

مائة قصيدة حب أرمنيّة

ترجمة: مهران ميناسيان

مراجعة وتقديم: ابراهيم الخليل

هذه القصـــائد...

هذا الشـــعر

* إنها قصائد تطلُّ بأعناقها مثلما جياد نافرة

جياد أصيلة شموس، مضمارها مساحات القلب، وغبارها المشاعر، يوقظ صهيلها الخجل في صدور العذارى، ويدغدغ الرمان، وماء الينابيع وتفاح الله، والنسوة الحائرات، أو المدلهات، أو الهاجرات، أو المغلوبات على أمورهن.

وليس ثمّة غير شرفة مفتوحة ومشرفة على سهوب تقود إلى جنة العشق الأرمنية، إلى آدم وحواء في كل أحوالهما وتحولاتهما، من هجر وخصام، وألفة ووصال، إنها مزامير تفيض رقّة، وتعلن:

عندما قَدِمَ الحبُّ إلى الدنيا

جاء وحلَّ في قلبي

ومن قلبي

فاض إلى بلدان كثيرة من العالم.

هذا الفيض أشبه بتلك الصوفية التي لا تطالب بأكثر من القليل من المادي لتتوهج نوراً يرسم كل ملامح الأرض ـ المرأة قبل أن يعرفها أو يرمّزها القول الجديد في عصرنا حيث يختلط اللون بالأرض والجسد

والمكان المفترض:

صدركِ هذا روضة
تباينت فيه الورود الزاهية،
آه... لكم أشتهي أن أدخل
روضته الغنّاء،
فأقطف باقة من ورودها
وأقدّم لكِ التفاح هدية.

أمّا نسبة هذه القصائد كما يرى مترجمها الصديق مهران ميناسيان فهي عصيّة الإثبات إلى قائلها... فمن قائلها ؟ كوجاك أم آخرون ؟ تلك من قضايا النحل في الشعر منذ هوميروس إلى لامية الشنفرى، ولكن لها في النهاية هويتها لا قائلها فهي أرمنية اللغة والإيقاع، أرمنية المكان والزمان والرائحة والأحلام وسبل القول، والعشق والفصول:

مثل أوراق الخريف
قلبي يرتجف أمام حبّكِ العاصف،
ومثل أمطار الربيع
تبلل الدموع وجهي.
لقد فارقتني روحي
فخذيني لحظة في حضنكِ الدافيء.
إن صدري يألف صدركِ
فخبّريني كيف يبتعد عنه ؟

هذه الألفة المسترية، التي تبذر في التراب الرخيص الذهب والدمع وحرارة الصدر ليكون فيما بعد جواهر اللغة، وألق الشعور، وفرادة الصوت الهاتف:

تقولين لي:
ـ إنكِ ياقوتة، زمرّدة، عنبريّة
مغسولة بألف كأس
من ماء الورد.
ـ ياحبيبي، إذا كنت تقول هذا لي
فصدري المرمري ملكك وأنت سيده،
وها أنا أفتح أزراري لك
فادخل وتمتّع بطيباته...

هكذا وتتلمس بأصابعها الطويلة الرشيقة ـ الكلمات ـ أرض أرمينيا كعازفة البيانو، لتوقّع أجمل الألحان والأغنيات، أغنيات تفوح منها رائحة الليل والوديان والجبال والنبيذ والنسوة الشابات والأشجار والقناطر والخبيّات:

أيّتها الجبال، وأنتِ أيّتها الوديان
أبلّغكن النبأ... لقد فقدت حبيبتي.
أيّتها الحجارة، أيّتها الشجيرات،
هل مرّت بكنّ حبيبتي ؟
أيّتها القناطر الحجرية:

هل مرّت بكِ حبيبتي ؟
لقد تركتني أغطّ في نومي
وانسلّت هاربة مني.

إنها لغة واحدة، لها أبجديتها الواحدة، مثلما الله واحد، ولكنها متعددة الأسماء والصفات، فمن يريد أن يقول أكثر فله الحق، فهذه اللغة تحمل جواز سفر إلى القلب، هذا الرقيق الشفاف، القاسي مثل جوهرة جارحة.

ومع ذلك نقول: من العاشق ؟ أو العشاق ؟ البلبل أم الشجرة، الرجل أم المرأة ؟ أرمينيا أم الأرمني ؟ الورد أم الأغصان:

لأن البلبل يعشق الورد
بنى عشّه بين الأغصان،
والأغصان ارتفعت
لتظلّ بأفيائها فراخه.

إنها المعادلة الصعبة حيث لا يتنازل الإنسان عن اسمه وأرضه وتاريخه ليقول وفي القول يرسم خارطة لا يمكن أن يلغيها أو يساوم عليها أحد، لا العصا ولا الجنرال... إنه الحب مساحة ترفض الترسيم فتتسلل كالماء إلى العروق فتزهر وتحيا.

ومع كل ذلك تبقى الكلمة الفصل للقارئ الذي يبدع نصّاً آخر له طعمه ونكهته ولغته الأخرى.

ابراهيم الخليل

مذاق الرّمان...
مقدمة في شعر ناهابيد كوجاك

بين كنوز الشعر الأرمني القديم ثمّة مجموعة كبيرة من القصائد تربط بينها صفات مشتركة في الشكل والمضمون وتعرف باسم واحد هو الـ «هايرين».

إن هذه القصائد لها وزن شعري واحد وشكل موحّد، وهي عبارة عن مقطّعات، تتكون الواحدة منها عادة من بيتين أو أربعة أو ستة أو ثمانية أو ستة عشر بيتاً، لكن الأغلب يكون من ثمانية أبيات.

إن عالم هذه القصائد غنيّ ومتنوّع، لكن قصائد الغزل والفراق وقصائد التأمل والحكمة لهما مكانة متميّزة فيها، وكما في قسم كبير من أدب وشعر القرون الوسطى، فإن قيم الحياة الدنيوية تظهر هنا أيضاً بوضوح، وكذلك جمال الحياة المتجسّد في التغزل بجمال المرأة وفي حبّها.

إن لهذه القصائد قيمة فنية بالإضافة إلى قيمتها التاريخية الكبيرة. إنها ترسم بوضوح وصدق العالم الروحي الواسع للإنسان، ترسم أحاسيسه وأحلامه التي تلتحم بحاضر الشعب وتاريخه، تلتحم بعاداته وتقاليده، وتعبّر عن أمنياته وفكره، وهذا هو سرّ شعبيتها الكبيرة بين القرّاء منذ أجيال وأجيال.

إننا نستطيع تقسيم هذه القصائد حسب موضوعاتها إلى ثلاث مجموعات كبيرة وهي: الحبّ والغزل، الغربة والشوق، الحكمة والنصيحة.

إن القصائد الغزلية لها مكانة خاصة ومميّزة في هذه المجموعة الكبيرة من القصائد، وذلك لجرأتها وقيمتها الفنية وعددها الكبير. إنها «ديوان» كامل وقائم بذاته، حيث نجد أن الحبّ يجسّد ذروة الأحاسيس ضد تفاهات العالم، وهو يحثّنا على التمتع بالحياة الدنيوية الحقيقية، وكل قصيدة من قصائد الحب جوهرة نفيسة، فيها فكرة واحدة تمر عبر جميع القصائد كخيط رفيع وعامل مشترك بينها، يؤكد على أن الإنسان يجب أن يحبّ في هذه الحياة ويجب أن يقدّر قيمة السعادة التي يمنحها الحبّ إياه، ولم تكن الإهانة التي يوجهها الشاعر للفتاة الخجولة من باب الصدفة، إذ يقول:

... مآلكِ الفناء، ومصيرك الموت،
وصدركِ الأبيض ماذا ستفعلين به ؟
مصيره سيكون وليمة للديدان
فلِمَ تحرمينني منه ؟

في قصائد الحبّ يدعو الشاعر إلى حرية الحبّ والزواج بين المحبين دون عوائق من الأهل والمجتمع، وكذلك يرسم صوراً من الحياة الاجتماعية الأرمنية في تلك الفترة، كزواج الفتاة مبكراً، أو تزويجها رغماً عنها. إننا نرى هنا النظرة الإيجابية إلى الحياة الدنيوية، عكس

المعتقدات السائدة في تلك الأيام، لذا نستطيع أن نرى فيها روح النهضة وروح التجديد والخروج على القديم.

إن قصائد الغزل مكتوبة بحرية تامة وبلا قيود، وهي مزيّنة بصور جميلة تتجسّد فيها معان عميقة، وعند التعبير عن الأحاسيس نجد الألوان الزاهية والمليئة بالحياة هي المسيطرة غالباً. إنها تثور كالبراكين أحياناً، وتجعل الأفكار التي تعبّر عنها أكثر واقعية وحيوية. إنّ شاعرنا لا حول له ولا قوة أمام الجمال والحبّ، وفي وضعه الصعب والحرج هذا يوجه كلامه للربّ قائلاً:

ما ذنبي إذا كنت أعشق
كل جميلة أصادفها ؟
ولأنني أعرف سرّ الآخرة
فسوف أعترف بهذا.
فأحمل بين ذراعيّ فتاتي الحلوة
وأصعد بها إلى الربّ قائلاً:
- أنت الذي خلقت كل هذا الجمال،
فعلامَ تلومني إذا عشقت ؟!

إن شاعرنا يعيش الحبّ بكل تفاصيله، يعيشه إلى درجة التصوّف، بحيث أن أحاسيسه تصل أحياناً إلى درجة عالية من التطرف، فهو يحسّ بكل ما يقدمه الحبّ من ملذات للإنسان، ويخيل إليه بأن الحبّ وُجد في قلبه أولاً، وكان غزيراً، بحيث

فاض بعد ذلك من قلبه إلى بلدان العالم:

عندما قَدِمَ الحبُّ إلى الدنيا
جاء وحلّ في قلبي،
ومن قلبي
فاض إلى بلدان كثيرة من العالم.
ثم صعد إلى رأسي
فتبوّأ مكانة من عقلي،
وحين سأل عينيّ دموعاً
انهمرت الدموع دماً إلى القاع.

إنّ كل قصيدة من قصائد الحبّ هذه تعبّر عن حالة نفسية معينة، أو هي قصة حبّ صغيرة مطعَّمة أحياناً بحوارات حميمة بين الحبيبين وبعض الكلمات والجمل الفكاهية:

تعالي، أعطيكِ رمّانة
فافتحي قلبها، واحسبي كم حبّة فيها
وامنحيني مقابل كل حبّة قبلة،
وإن زدت على ذلك فهو حرام عليّ.
ـ ابعد عن طريقي أيّها الشقي الأحمق،
خيّبت ظني وثقتي برزانتك.
تريد مني مقابل كل حبّة قبلة ؟!

أين كان ؟ وأنّى يكون ذلك ؟

ليست هناك مقارنة أو تعبير جميل إلا واستعمل من أجل التغني بجمال المحبوبة ووصف حسنها البهي الخلّاب.

إنّ شاعرنا كريم عندما يصف جمال المرأة، وهو يفعل ذلك دون قيد أو خجل. إن الجمال والحبّ بالنسبة له ملتحمان بعضهما بعضاً، ويكملان بعضهما، وقد تحولا إلى معبودة جميلة:

صدركِ هذا معبد من المرمر الأبيض،
ونهداكِ هذان قنديلان مضيئان.
بودّي لو أكون قارع الأجراس
أو الشماس الموكّل برعاية معبدكِ.
ـ ويحك أيها الفتى العابث الأحمق،
مثلك لا يستحق أن يكون شماساً لمعبدي،
همّه اللهو والإنصراف إلى العبث
ويظل معبدي مظلماً بلا أنوار.

في قصائد الغزل لا نجد تكراراً في المعاني والصور كثيراً، بل إن الأفكار جديدة ومختلفة عن غيرها، وهي تكون أكثر جمالاً عندما تتلاحم مع صور الطبيعة الخلّابة، حيث تعيش كل قطعة من الطبيعة في القصائد وكأنها قسم منها، تعيش فيها كما يعيش الحبّ والجمال فيها:

أخذتِ لون عينيك من البحر،

أمّا حاجباكِ فمن الغيم الأسود.
ووجهكِ وبشرتكِ
من أوراق الورد الأحمر...

إنه يعيش لهب الحبّ الساحر. إن العالم جميل ومليء بالعجائب، والطبيعة أخّاذة، لأن الحبّ ذاته جميل وأخّاذ، حتى أن الإنسان لا يحس بجمال الطبيعة إلا عندما يحبّ:

كنت منحدراً من الجبل وأنا أسائل نفسي:
«ترى أين أجد الخضرة ؟».
فتناهى إلى سمعي صوت يقول:
«الخضرة تملأ الوديان والجبال،
فمن يملك حبّاً
فشرايين قلبه خضراء.
ومن لا يعرف الحبّ، فقلبه أسود
ووجهه أخضر».

قد يخيل للقارئ لوهلة بأن هناك شاعراً آخر يعيش بين ثنايا هذه القصائد، وهو يذكرنا دائماً ويهمس في آذاننا من وراء الكواليس بأن «الحبّ هو الحياة بذاتها، إنه معنى الحياة، وسعيد، سعيد جداً من يحبّ أو من يستطيع أن يحبّ».

أما قصائد الشوق والفراق فإنها تستلفت انتباهنا لأنها تعبّر عن نفسية وأحاسيس الإنسان المتغرب عن وطنه، الإنسان الذي حفظ

حبّ الوطن في قلبه، وهم كثيرون في تلك الأيام، إذ كانت أرمينية في حالة يرثى لها بسبب الحروب والغزوات والاضطهادات المتكررة التي أثرت على الاقتصاد والحياة الاجتماعية، وكان الفلاح والمهني يهاجران عن وطنهما وبيتهما إلى بلدان بعيدة بحثاً عن لقمة العيش والحياة الكريمة. إن ظاهرة الهجرة توسّعت بشكل مخيف وتركت أثرها على جميع مظاهر حياة الشعب، وطبيعي أن تترك هذه الظاهرة بصماتها وأثرها على الشعر والتراث الشعبي أيضاً.

في هذه القصائد الصغيرة نلمس الحالات النفسية للإنسان المهاجر، ونجد حالات الحنين الكبير للوطن البعيد. إن هذه الحالات تختزن في أعماقها آلام ومرارة المهاجر. إن الشعراء والشعراء المغنون الجوالون (التروبادور) في الأدب الأرمني القديم لهم اهتمام خاص بالقلب الحسّاس للمهاجر الغريب، تجاه دموعه وحنينه، لأن قلب المهاجر حسّاس ورقيق، وحياته في الغربة صعبة ومملة، وروحه لا تحتمل كل هذا العذاب والألم.

إن القصائد المهداة لموضوع الغربة غنيّة جداً بالصور الفنية، وهي موجزة بحيث يخيل إليك بأنها عبارة عن رسائل غزلية صغيرة مكتوبة من الغربة، مكتوبة بأيد مرتجفة، بدموع العيون الباكية وقلوب جفّت من الشوق والحنين. إن مرسل الرسالة وصاحبها يتبادلان أدوارهما، أحياناً يكون المرسل هو الشاب المسافر إلى بلد غريب، والذي يضطر إلى الهجرة ولم يتلذذ طعم ودفء الحياة العائلية إلا قليلاً. إنه يهاجر ليكمل حياته تحت سماء باردة غريبة، لكنه قبل سفره لا ينسى أن يقول كلمتين مؤثرتين إلى أقاربه وحبيبته:

سأقوم من مكاني وأودّعكم
فظلوا مكانكم بخير يا أصدقاء،
سأترك عندكم حبيبتي وديعة
فصونوها بين الورود،
وإذا ما عدت سالماً من رحلتي
فردّوا الأمانة إلى صاحبها،
أمّا إذا قضيت في غربتي
فاقطفوا الورد واذكروا صاحبه.

وأحياناً أخرى نجده يبكي على مصيره وأيامه الماضية، وهو يتذكر حبيبته البعيدة ولا ترى عينيه النوم حتى الفجر، فالابتعاد عن الحبيبة يشبه الموت كثيراً.

وتارة أخرى نجد أن مرسل الرسالة هو الفتاة التي تنتظر منذ سنوات وسنوات خبراً من حبيبها، وهي تتوسل إلى الجبال والوديان وتسأل القمر خبراً عنه.

وحيناً نجد أن كاتب الرسالة هو الشاعر ذاته، الشاعر الذي يتحسس بعمق آلام الغربة ويغنّيها، ويشبّه الغريب بالشجرة الخضراء التي سقطت أوراقها وجفّت أغصانها:

... أو هو كالشجر الوارف الخضرة
غزاه شحوب الخريف،
تعرّى من أوراقه

فانحسرت من حوله الأفياء والظلال.

إنها خير شاهد على ما تكبده الأرمني في غربته وفي صراعه من أجل لقمة العيش.

كما بيّنا سابقاً، فإن قصائد التأمل والحكمة وكذلك القصائد الفلسفية لها مكانة مميّزة بين هذه القصائد، وذلك لعمق معانيها ومدلولاتها الفكرية المميّزة. إن الشاعر ـ الإنسان الذي يتغنّى بالحبّ والطبيعة ويمتدح الحياة وجمالها ويحسّ بها بهذا العمق لا بد له من أن يعيش تناقضاتها أيضاً ويكتب عن سلبياتها.

وفي جو مشحون بقيود العصور الوسطى، تبدو لنا قصائد النصح والإرشاد وكأنها قفزات وتحليق في سماء الحرية. إنها نصائح ذات أفكار طليعيّة وإنسانية نبيلة، وهي تحثّ الإنسان على الحبّ والرحمة، على نسيان الذات والتواضع والصلاح، وعلى فضائل جميلة أخرى، وتدعو إلى المساواة الاجتماعية بين الجميع.

في هذه المجموعة من القصائد يُمتدح العلم بشكل خاص، كذلك المعرفة التي ترشدنا إلى النور، مثلما يرشدنا القنديل في الظلام الحالك. إننا نرى هنا تناقضات الحياة وهي تظهر جلية بفضل كلمتين أو فكرتين صغيرتين، كالتناقضات بين العالِم المثقف والجاهل الذي عادة يشبَّه بالنار التي تحرق وتبيد كل ما حولها، بينما يبقى العالِم كالماء، وهو ينشر البهجة والحياة أينما حلَّ، ويزرع الخير والسرور:

أعرني سمعك لأسدي إليك نصيحة

أنت العاقل الحصيف... فاسمعني:

لا تصادق الأحمق
ولو كان يحبّك ألف مرّة،
فالأحمق كالجمر يحرق المكان
الذي يسقط عليه،
أمّا الذكي الأريب فهو كالماء،
حيث حلّ زرع الخير والخضرة.

هذه السلسلة من القصائد عبارة عن نصائح وعظيّة جميلة، حيث توضع التناقضات على كفتي الميزان، كالخير والشر، الأمانة والخيانة، التواضع والتكبّر.

* * *

من قائل هذه القصائد ؟

إن الجواب علي هذا السؤال هو من الأمور التي لم تجد بعد جواباً نهائياً في تاريخ الأدب الأرمني، وهناك خلاف بين الباحثين والمختصين في هذا المجال، فبعض الدارسين كان ينسب قسماً كبيراً منها إلى الشاعر ناهاييد كوجاك، الذي عاش في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ولكن، وبعد دراسات معمّقة لهذه الأعمال، استخلص الباحثون أن هذه القصائد تدخل في الإطار العام للأدب الشعبي، وهي نتاج أجيال متعاقبة من الشعراء المبدعين، فنشأ بذلك جدال حاد حول هذا الموضوع بين المؤيدين لهذا الرأي والمعارضين له، وإلى الآن لم يتفق الباحثون، ولم يجزموا حول إذا ما كانت هذه القصائد من نتاج الشاعر كوجاك أو من نتاج مجموعة من

الشعراء، وأي من هذه القصائد هي لكوجاك وأي منها لغيره من الشعراء. ومع ذلك فقد بات معروفاً الآن لدى معظم الباحثين بأن قسماً كبيراً منها له عوامل مشتركة عديدة مع بعضها بعضاً في الأسلوب وطريقة التفكير واللغة، وتحمل طابع الإبداع الشخصي، ولذلك فمن الصعب بمكان وضع هذه القصائد في الإطار العام للأدب الشعبي.

لقد بيّنت الدراسات كذلك بأن الأغاني الشعبية وأعمال الشعراء - المغنين، والتي أُلّفت وغنّيت من قبلهم في آن واحد، قد تسللت إلى هذه القصائد التي نحن بصددها أو اختلطت بها، ولكن لم يعرف إلى الآن فيما إذا كانت هذه الأغاني من إبداع الشعراء المغنين أنفسهم أم أن هؤلاء استمدّوها من الأغاني الشعبية، وبعد إجراء الإبدالات والتعديلات عليها أعادوها إلى الشعب بحلة جديدة.

إن قسماً آخر من هذه القصائد قد تعرّض لتأثيرات واضحة عبر عدة أجيال متعاقبة وفي مناطق جغرافية مختلفة، كما أن العديد منها ليس لها سمات مشتركة فيما بينها، لكنها تبقى متميّزة لأنها مرت في بوتقة الشعب واكتسبت حكمته وأصبحت جزءاً من تراثه.

وهكذا، وبالنسبة لموضوع تحديد قائلي هذه القصائد توصل العلماء والدارسون إلى الرأي الذي يقول إن هذه القصائد يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول منها يكون لعدد من الشعراء، والقسم الثاني للشعراء الجوالين، وأما القسم الثالث فيعود إلى التراث الشعبي.

يجب أن ننوّه أيضاً إلى ظاهرة أخرى، وهي أن بعض هذه القصائد يعود بجذوره إلى القرن العاشر الميلادي ويرتبط باسم الشاعر الأرمني الأكبر كريكور ناريكاتسي، وأن بعضها وجد في مخطوطات تعود إلى فترة سبقت حياة ناهاييد كوجاك.

إلى جانب كل هذه الآراء، يرى بعض الباحثين ـ اعتماداً على دلائل لغوية وتاريخية وفولكلورية ـ أن موطن هذه القصائد هو مدينة أكين في أرمينية الغربية، القريبة من مدينة خربوت (في وسط تركية حالياً)، حيث انتشرت هذه القصائد ولاقت رواجاً كبيراً، حتى أنها كانت تغنّى في تلك المنطقة منذ القديم إلى بدايات القرن العشرين، عندما قام بعض المهتمين بتدوين التراث الشعبي بتسجيل أعداد كبيرة منها من شفاه سكان تلك المدينة وقراها.

بعد كل ما تقدم، ترى كيف سيكون موقفنا من الشاعر ناهاييد كوجاك، خاصة وأن هذه القصائد التي نسبت إليه قد بقيت باسمه في الأدب وما زالت إلى الآن، وذلك ليس فقط بغريزة التقليد، بل أيضاً بوحي المنطق، لأن هذه القصائد، الغزلية منها خاصة، وبالرغم من ارتباطها بالتراث الشعبي ارتباطاً وثيقاً، إلا أنها تحمل أسلوباً شاعرياً موحداً وتفكيراً خاصاً بشخص واحد لا أكثر، وإن الجهات العلمية العليا في أرمينية، كأكاديمية العلوم وجامعة يريفان ما زالت تنشر هذه القصائد وهي تنسبها إلى الشاعر كوجاك.

أخيراً، من صاحب هذه القصائد ؟

هل هو الشاعر ناهاييد كوجاك، من قرية خاراكونيس القريبة من

مدينة وان، أم هو شاعر مجهول الاسم والهوية، أم هي لمجموعة من الشعراء ؟

إن الجواب على هذا السؤال ليس مهماً، لكن المهم أن نعرف بأن هذا الشاعر الخالد، والذي نجهل تفاصيل حياته الخاصة تماماً، قد أبدع ووصلت إلينا أعماله الجميلة، ونحن الآن أغنياء بما نملك من هذا الإرث الثمين. إذا كانت هذه القصائد موجودة، فموجود إذاً ذلك الشاعر، وموجود أيضاً اسمه الكبير، خاصة وإن جميع الناطقين بالأرمنية، حينما يلفظون اسم «كوجاك» يتذكرون ذلك «الجبين المكلل بالنور»، كما عبّر عنه الشاعر الخالد يغيشه تشارنتس، وبالتالي يتذكرون قصائد الـ «هاييرين»، يتذكرون الحب والحبيب.

إنه الشاعر كوجاك، الذي تغنّى بالحياة والطبيعة، تغنّى بالحبّ وجمال المرأة، تغنّى بشجاعة ومن غير قيود، وكل ذلك في ظلمة القرون الوسطى، في قرية نائية عن العالم.

لقد مرت قرون عديدة على ولادة هذه القصائد، لكن أنوارها وصلت إلينا الآن من البعيد، من البعيد جداً كأضواء النجوم الآتية من الفضاء، ولم يخبُ نورها ولم تضعف، كضوء النجوم. لأنها، وإن ظهرت إلى النور قبل قرون عديدة، إلا أنها ظلت تعيش في ذاكرة ووجدان وأحلام الإنسان الأرمني في كل زمان ومكان. لقد تغيّر الشيء الكثير في حياة الإنسان من تلك الأيام إلى الآن، لكن الإنسان بقي كما هو ولم يتغيّر، بقي يحبّ ويكره، يتألم ويحن كما كان يفعل قبل مئات السنين، ومن هنا جاء قرب هذه القصائد إلى قلوبنا وعواطفنا. إنها ببساطتها وصفائها وعفويتها

وعفويتها تأسر قلب الإنسان المعاصر، المطحون بثقل الحياة والحضارة الحديثة.

* * *

يحتوي هذا الكتاب على مختارات من قصائد الـ «هاييرين»، انتقيتها من المجموعة الكاملة لها والتي صدرت في يريفان عام 1995 بهمّة الباحث أسادور ميناتساكانيان، ضمن منشورات معهد المخطوطات القديمة هناك (المعروف باسم الـ «ماديناتاران»)، وهو يحتوي على كل ما جاء من هذه القصائد في المخطوطات القديمة، ويقع في 1098 صفحة من الحجم الكبير، وهو يحتوي أيضاً على دراسة شاملة عنها مع هوامش علمية دقيقة وفهارس مختلفة بالإضافة إلى معجم لغوي.

إن أغلب القصائد التي انتقيتها هي قصائد في الحبّ والغزل، لكنني آثرت أن أعطي قصائد الحنين والتأمل أيضاً حصتها في الكتاب، ولو بجزء يسير، كي تكون الصورة أشمل وأدق.

في النهاية لا بدّ لي إلّا أن أشكر الصديق الأستاذ ابراهيم الخليل الذي قام بمراجعة هذه القصائد وكتب عنها مقدمة جميلة، وآمل أن أكون قد وفِّقت في عملي، والأعمال بالنيّات.

مهران ميناسيان

حبّة الرّمـــان

مائة قصيدة حبّ أرمنيّة

عندما قَدِمَ الحبُّ إلى الدنيا
جاء وحلَّ في قلبي ،
ومن قلبي
فاض إلى بلدان كثيرة من العالم .
ثم صعد إلى رأسي
فتبوّأ مكانة من عقلي ،
وحين سأل عينيّ دموعاً
انهمرت الدموع دماً إلى القاع .

أنا العين ، وأنتِ نورها يا روحي ،
والعين عمياء بلا نور .
أنا السمكة ، وأنتِ الماء يا روحي ،
ولا حياة للسمكة بدون الماء .
عندما يخرجون السمكة من الماء
ويضعونها في ماء آخر فهي تعيش ،
أمّا حين يبعدونني عنكِ
فلا مفرّ من موتي .

ـ من الأم التي ولدتكِ ؟
ومن المرضعة التي غذّتكِ بلبانها ؟
ـ ولدتكِ أيلة جبلية شرود
وغذّتكِ الشواهين الأنوفة ،
ومن صدره سقاكِ القمر المنير
وغذّتكِ الشمس لبانها ،
وكانت الرياح تهزّ سريركِ
بينما تهدهدكِ القديسات البتولات بالترانيم لتنامي .

أقول هنيئاً للعاشق الذي
يختطف معشوقته ويهرب بها ،
وحالما يعبر النهر
يفيض الماء ويهدم المعبر ،
وتأتي الظباء والأسماك
لتمحو آثار أقدامهما ،
يأخذها ، ويدخل بها الروضة
ثم يقبّل شفتيها في نور الصباح .

حملوا صورة حبيبتي
وأخذوها معهم هدية إلى الصين ،
عرضوها في كل مكان
فلم يجدوا لها شبيهاً في الحسن ،
فاجتمع آلاف الرسامين[1] ،
ولكن أي رسّام منهم
لم يستطع أن يرسم
صورة تشبه حبيبتي .

(1) ورد في الأصل 6500 رساماً .

أيتّها الحبيبة الطيبة ، كفى ،
إن حبّك يفككك روحي ،
تعالي معي إلى بلد آخر
فهذا البلد لا يليق بحبّنا ،
إلى بلد نعيش فيه علانية
أمام عيون الآخرين ،
فإلى متى نظل نرتجف خوفاً
ممّا سيحدث ؟

يا قمر تُدِلّ وتفاخر بقولك:
«أنا واهب النور للعالم» .
ها هنا قمر بين ذراعيّ من التراب
يريح خدّه إلى خدّي .
فإذا خامرك الشك بقول هذا العبد المتواضع
فسوف أحسر قبائي قليلاً ،
لولا أنني أخشى عليك من الهوى
فيخبو نورك الذي تفيض به على العالم .

أيّها القمر في علاك
إلى أين رحيلك في هذا الليل السرمدي ؟
فمن عليائك تتلصّص
على الصبايا الغافيات داخل المنازل .
ثمّة صبية مكشوفة الصدر
يغمر صدرها ضياؤك ،
فيشحب أمامه نور النجوم
في السماء حين ينعكس .

جاء الحسّاد إليّ وقالوا:
ـ أظهر حبيبتك كي نراها ،
نرى روعة قامتها
تلك التي خلبت عقلك .
ـ حبيبتي قمر السماء
سوف تشق أستار الغيوم وتنزل .

صبيّتان هامتا بي حبّاً ،
لا أعرف أيّهما أجمل من الأخرى ؟
أمّا إحداهما فشمس الصباح ،
وأمّا الأخرى فقمر في ليل مظلم .
أيّها القمر ، أنا لا أحبّك ،
فأنت تحيا في شحوب دائم
لذا سأمضي وأعشق الشمس
كي يشرق نور الصباح .

يا حبيبتي ، أنّى نقّلتُ بصري
في الأعلى أم في القاع أُجمل منكِ لا أُرى .
كل الصبايا نجوم
وأنتِ قمر السماء الساطع .
مرة كل عام يحتفل الناس برأس السنة
فيهنّئ بعضهم بعضاً ،
لكنني اليوم أرى أمام عينيّ ألف عيد يتراقص فيهما
لأنني رأيتكِ .

لكِ عينان ، اليمنى تحرق كل من تراه
أمّا اليسرى فتشويه ،
لكِ حاجبان ، أمام سحرهما
تتهاوى مدينة شيراز بكاملها .
في حلب ، وفي دمشق
ثمّة من يسمع صوتكِ
يميل عن النظر إلى الشمس
وينظر إليكِ بحسرة وحنين .

أنا أجري كسيل الماء
أتنقّل من بلد إلى آخر ،
أريني فتاة بمثل جمالكِ
لأعشقها وأنساكِ ،
وإلّا تفعلي ، لوّنت
حجارة هذه القرية بدمائي .

ما ذنبي إذا كنت أعشق
كل جميلة أصادفها ؟
ولأنني أعرف سرّ الآخرة
فسوف أعترف بهذا .
فأحمل بين ذراعيّ فتاتي الحلوة
وأصعد بها إلى الربّ قائلاً:
ـ أنت الذي خلقت كل هذا الجمال ،
فعلامَ تلومني إذا عشقت ؟!

أطلّ القمر من خلف ذرا الجبل
يرافقه نجمه ،
فاعتنقت الجميلة بين ذراعيّ
وقبّلتها قبلتين معاً .
قال الخالق بفمه: إيّاك أن تفرّط
بهذه المحبوبة أو تفقدها ،
فهي فريدة لم أخلق لها
أختاً في الحسن والجمال .

قلت لها: يا الله ، كم أنتِ جميلة !
فقالت: الله وهبني كل هذا الجمال .
قلت لها: أعطني قبلة .
قالت: قبلتي لا أعطيها دون مقابل .
قلت لها: وما تطلبين مقابل القبلة ؟
قالت: مطلبي أن تعطيني روحك .
- روحي تعشق روحك
إن شئتِ فسأعطيها لكِ .
فأنا أخشى أن تطلبي عينيّ
يومها لا أعلم كيف سأنظر إليكِ ؟
ماذا لو كان للإنسان عشرات العيون ؟[1]
أو أكثر من ذلك بكثير .
لكنت نظرت إلى العالم بعين واحدة ،
ونظرت إليكِ بالعيون الباقية جميعاً .

---

(1) في الأصل 6 ـ 7 عيون ، 5 ـ 6 عيون أو 46 عيناً .

يا داود النبي ، يا مرتجى أملي ،
أنا خطّاء ، فساعدني على غفران خطاياي .
هيّمتني فتاة صغيرة ،
أحببتها كما أحبّ عينيّ .
لو جاءت مثلها إليك
وكنت منعزلاً في غرفتك لاستبقيتها .
في الصباح تتغنّى بمزاميرك ،
وفي الليل تأخذها بين ذراعيك .

تعالي ، أعطيكِ رمّانة
فافتحي قلبها ، واحسبي كم حبّة فيها
وامنحيني مقابل كل حبّة قبلة ،
وإن زدت على ذلك فهو حرام عليّ .
ـ ابعد عن طريقي أيّها الشقي الأحمق ،
خيّبت ظني وثقتي برزانتك .
تريد مني مقابل كل حبّة قبلة ؟!
أين كان ؟ وأنّى يكون ذلك ؟

يا حبيبتي الصغيرة ، هل تعلمين
أني زرتكِ خلسة في الليل ؟
تسللتُ إلى سريركِ وكنتِ غافية
فسرقتُ منكِ ألف قبلة بالتمام ،
وأنا لا أعلم.. أكنتِ نائمة أم تغافلتِ ؟
فكانت القبل برضاكِ ،
أم أشفقتِ على حالي
وقلتِ: شاب جاءكِ ليلاً .

يا حبيبتي الصغيرة ، عجباً لكِ !
إلى أين تمضين جيئة وذهاباً ؟
أنا أعلم أنكِ تترددين
على حيّنا من أجلي ،
تجلسين هناك ، وتتشاغلين عني بالتطريز ،
وكل ذلك دلال منكِ ،
وسأظل أتغزّل بكِ
إلى أن تعطيني قبلة من عينيكِ .

يا حبيبتي ، ارحمي مواليكِ ،
فأنا المتوحّد ، المعزول ،
أذرف الدمع سرّاً وعلانية ،
وأخشى على نفسي من العمى .
لقد قالوا: إن لديكِ وروداً ،
فتصدّقي على مولاكِ بباقة منها
أقبّلها
لعلّ عينيّ تتوقفان عن البكاء .

عبر الأزقّة الضيّقة الملتوية
في الحارة كنت أمضي ،
وإذا بحبيبتي الحلوة أمامي
سلّمت عليّ بتيه وترفّع .
فاحتويتها بين ذراعيّ ، وضممتها ،
مقبّلاً عينيها بشوق ولهفة ،
فرددت وهي تمضي باكية:
يا لفضيحتي أمام عيون الناس .

فرّقوا بيني وبين حبيبتي ،
فذبلتُ كورق الورد الغضّ .
مضوا بها إلى بلد بعيد ،
فأظلم قلبي ، ولم تزره بعدها أشعة الشمس .
سأسري محلّقاً إلى الله في سمائه
وأسأله أن يعيرني جناحيّ حمام
لأطير في الفضاء الرحب
وأرفرف فوق بيت حبيبتي ،
ومن عينيّ الحزينتين
سأترك الدمع ينسرب كالغيث ،
حينها تخرج حبيبتي
وقد رنّقت وجنتيها حمرة الورد ،
فأنقضّ لأقطف قبلة
من شفتيها الملتهبتين .

إذا كان النسر جائعاً
يصطاد صيده ويشبع منه ،
والفتى إذا أحبَّ
فلا يطفئ شوقه سوى القبلة .
فماذا أفعل ، يا روحي
إن اشتهيت أكثر كلّما قبّلتكِ ،
لتوّي خرجت من صدركِ
وها هي عيناي تبحثان عنكِ .

القبلة التي وهبتني إيّاها من شفتيكِ
طائعة مختارة
ليس لنكهتها مثيل أبداً
لا في فواكه الأرض ولا في عجائب البحار .
هذه القبلة لها طعم
الفاكهة التي أُغري بها آدم ،
تذوّقها وخرج مطروداً من الجنة ،
أمّا أنا فخرجت ولا زال الشوق لصدركِ في قلبي . . .

يا حبيبتي الصغيرة
كل قطعة في جسدكِ آية من الجمال .
صدركِ هذا قفص من الذهب
وأنا حجل غريب فيه .

كنت منحدراً من الجبل
وأنا أحمل زقّاً من النبيذ بيدي
حين صادفت حبيبتي في الطريق .
كانت تحمل الكثير من التفاح الأحمر في صدرها .
طوّقت عنقها الجميل بذراعيّ
وهممت أن أقطف قبلة شوق من وجنتها .
تمنّعت وصفعتني قائلة:
لا تجعل نفسك مثالاً للفضيحة في هذا الصباح ،
فأنا لست صيد النهار
وإنّما صيد الليل الحالك الظلام ،
أصاد بالنبيذ ليلاً
وأصاد في النهار بالتفاح الأحمر .

تقولين لي:
ـ إنكِ ياقوتة ، زمرّدة ، عنبريّة
مغسولة بألف كأس
من ماء الورد .
ـ يا حبيبي ، إذا كنت تقول هذا لي
فصدري المرمري ملكك وأنت سيده ،
وها أنا أفتح أزراري لك
فادخل وتمتّع بطيباته . . .

أيّتها الوجنة البيضاء المشرّبة بالحمرة ،
إلى متى تضرمين النار فيّ ؟
حين يجمعنا محفل
تحدثينني بحاجبيكِ ،
وحين نختلي تفكّين أزرار ثوبكِ
وترينني صدركِ المرمري .
آه . . . لكم أخشى أن تهجريني
وأن أبقى محروماً من صدركِ .

أيّتها الوجنة البيضاء المشرّبة بالحمرة والخجل
قد ملكتِ قلبي .
صدركِ هذا روضة
تباينت فيه الورود الزاهية ،
آه . . . لكم أشتهي أن أدخل
روضته الغنّاء ،
فأقطف باقة من ورودها
وأقدّم لكِ التفاح هدية .

يا رويحتي ، لو أذنتِ لي
لأكشف عن صدركِ قليلاً
وأجعل من هذا الصدر روضة ،
لا أدخلها قبل أن تأذني لي .
ويميناً لن أدخلها
قبل الوفاء بهذا العهد ،
فمن ملك الموت هذا الذي
سيجرؤ على أن يبعدني عن صدركِ ؟

يا جميلتي ، عيناكِ سوداوان
وصدركِ روضة معطار .
أشتهي أن أدخل ملكوتها
وأنا أخاف أن يكون لها مالك .
ـ ويلك . ادخلها وتمتّع بلا خوف
وليهدم بيت من يفشي السرّ .
وليفقد نور عينيه
كيلا يلعننا بلسانه السليط .

كأنّكِ قد قطفتِ
من دالية العنب الأبيض ،
وأمّا وجهكِ المحبوب
فمن ورق الآس الجميل .
إني أودّ أن أعشقكِ
حتى لو ذمّني العالم أجمع ،
أودّ دخول صدركِ
حتى لو كنتِ جائرة أكثر من ألف تركي .

كنت أشتهي نبيذاً له فتنتكِ ،
لأنهل منه حتى الثمالة .
فصدركِ هذا جنة آدم
لكم أتمنّى أن أدخلها ، وأقطف من تفاحها ،
ثم ألقي برأسي
وأغفو بين نهديكِ ،
حينها سأكون مديناً لملك الموت
فليأت ويقبض روحي .

أنا وأنتِ كما شاء الصبا والشباب
وهذا زمان العشق .
خصرِكِ ، كما وتر القوس
إمّا جاذبته إنقاد لي ،
ونهدكِ عناقيد من العنب
نبت في كرم صدركِ ،
وهو فجر مشرق ، كلّما انحسر الثوب عنه
توهّج بالبريق أكثر .

أيّتها الشُمَّامة الصغيرة ، يا حبيبتي ،
متى يكون صدركِ مملوكاً لي ؟
صدركِ هذا الذي يشبه البحر
ويُقال: «إن البحر بارئ الأسقام» .
فأنا أريد أن أكون طائراً بحرياً صغيراً
أسبح في هذا الصدر.
وحين أخرج متعباً
أرتاح في أفياء حاجبيكِ .

لكِ عينان وحاجبان سوداوان
وجبهة واسعة وخدٌّ أحمر ،
وبياض أخّاذ ساحر
ونهدان صغيران كشُمّامتين .
مآلكِ الفناء ، ومصيركِ الموت ،
وصدركِ الأبيض ماذا ستفعلين به ؟
مصيره سيكون وليمة للديدان
فلِمَ تحرمينني منه ؟

منذ أن قدمت إلى هذا العالم
لم أعترف أمام كاهن ،
وإذا ما صادفت أحدهم
حوّلت طريقي وابتعدت ،
أمّا إذا صادفت حسناء
فإني أمضي إليها وآخذها بين ذراعيّ ،
أحوّل حضنها إلى معبد قدسي
وأعترف لنهديها . . .

صدركِ هذا معبد من المرمر الأبيض ،
ونهداكِ هذان قنديلان مضيئان ،
بودّي لو أكون قارع الأجراس
أو الشماس الموكّل برعاية معبدكِ .
- ويحك أيها الفتى العابث الأحمق ،
مثلك لا يستحق أن يكون شماساً لمعبدي ،
همّه اللهو والإنصراف إلى العبث
ويظل معبدي مظلماً بلا أنوار .

رأيت روح روحي ، مبهرجة
بكامل أبهتها تخرج للصلاة ،
فاعترضت طريقها وقلت:
إلى أين ؟ صلاتكِ حرام يا هذه .
لكن إذا رضيتِ بي
سأذهب إلى الكنيسة وأبتهل
متوسلاً إلى الربّ
لأملك جنّات صدركِ .

أنتِ أشبه بطير بحري ،
لماذا لا تغادرين البحر ؟
ولماذا لا تشفقين ؟
وأنا الشاطيء الأمين لكِ .
ـ اذهب واصنع لي سفينة من الذهب
وكن ربّانها ،
وليكن منزلي صدرك ،
فأخرجني وأبعدني عن بحر الدماء .

مثل أوراق الخريف
قلبي يرتجف أمام حبّكِ العاصف ،
ومثل أمطار الربيع
تبلل الدموع وجهي .
لقد فارقتني روحي
فخذيني لحظة في حضنكِ الدافيء .
إن صدري يألف صدركِ
فخبّريني كيف يبتعد عنه ؟

أخذتِ لون عينيكِ من البحر ،
أمّا حاجباكِ فمن الغيم الأسود .
ووجهكِ وبشرتكِ
من أوراق الورد الأحمر .
وحيث تتواجدين
لا حاجة لنور الشموع ،
فنور صدركِ يشعّ إلى الخارج
وينشر من كانوا في القبور .

لأن البلبل يعشق الورد
بنى عشّه بين الأغصان ،
والأغصان ارتفعت
لتظلّ بأفيائها فراخه .

دخل البلبل روضة
وحطّ على غصين الورد ،
فتح منقاره الجميل
وظلّ يغرّد حتى الفجر .
كانت الوردة تتظاهر بالنوم
حين سمعت أغاريده ،
فشقّت قميصها الأخضر
وارتدت على عجل ثوباً أحمرَ .

قلبي فتى أدمن البكاء
وأنا أسلّيه بالسكّر .
يبكي وهو يدعوكِ طوال النهار
وأنا لا أعرف دواء له ،
كل ورود الدنيا
أستعرض موكبهنّ أمام عينيّ ،
فإذا قلبي لا يهوى سواكِ
فماذا أفعل ؟

هذا الربيع لم يقبل بعد ،
ومع ذلك أرسلت لي حبيبتي
باقة من الورود .
لقد لفّتها بخصلة من شعرها ،
غمرت بباقة الورد وجهي
فعادت إليّ روحي .
ماذا سأفعل بالورد
إذا كانت السيول قد هدمت بيتي ؟

كم مرّة نصحتك ألّا تحبّ الورد
فإن للورد شوكاً .
أمّا البنفسج فلا شوك له ، فاعشقه ،
فإن له عبقاً ذكيّاً .
ولا تعشق الورد حين يكون متفتّحاً
كيلا يذوي على صدرك .
اعشق الورد حين يكون برعماً بعدُ ،
كي يتفتّح على صدرك .

كنت منحدراً من الجبل وأنا أسائل نفسي:
«ترى أين أجد الخضرة ؟» .
فتناهى إلى سمعي صوت يقول:
«الخضرة تملأ الوديان والجبال ،
فمن يملك حبّاً
فشرايين قلبه خضراء .
ومن لا يعرف الحبّ ، فقلبه أسود
ووجهه أخضر» .

في هذا العالم
أنتِ الخاتم وأنا زمرّدته .
حيث كان نبع بارد
أنتِ العشب وأنا الندى .
أنتِ التفاحة على الغصن
وأنا الغصن الأخضر .
يا لهف نفسي إذا جاء الخريف
وقطفتكِ الأيدي وذبل عودي .

تأمّلوها ، تأمّلوا محبوبتي
كل ما ترتديه أخضر .
قباؤها ملون
وعرى أزرارها خضر .
أخذها ودخل بها إلى روضة
يسير فيها الماء وأطرافها خضر .
تأمّلوا الأشجار ، لقد تفتّحت براعمها
زهراً ، وأخضرّت الأفنان .

كان عليّ أن أكون خُطّافاً صغيراً
لأبني عشي في منزلكم ،
ليفقس بيضي فراخاً
وأزقزق مرحاً ، لأشبع من حبّكِ ،
ومن الصباح إلى المساء
أتملّى وجهك ،
وعندما يحلّ الليل
أتسلّل إلى صدركِ ،
ثم أغفو من الليل
حتى مطلع الفجر ،
وفي الصباح أعاود زقزقتي
في عشي ،
وبعد أن تشرق الشمس
أتجوّل في العالم .

في الضحى كان النسر
يصطاد طريدته بمنقاره الأحمر .
وكان ثمّة حجل ينتصب
مزهوّاً بريش غزير حول عينيه ،
قال الحجل للنسر:
ـ لا يكن صيدك في الضحى
فأنا لست صيداً يصاد في النهار
وإنّما أصاد في الليل المظلم .

كان لي حديقة زرعتها بيدي
كم فيها من الأفنان المورقة !
وبعد أن بذلت قصارى جهدي في العناية بها
سلبوها مني ، وهأنذا أنوح حزيناً .
ومثل حجل أضاع فراخه
أهيم في الجبال .
وقد قيل لي: إن لديكِ شركاً
فانصبيه علّي أقع فيه .

كنت نوعاً من الطيور
لا ألتقط الحبوب من الأرض .
وكنت أحلّق عالياً في السماء
حتى لا أقع في شرك الحبّ .
جئت ووقعت في ذلك الشرك الذي
كنت أحذره .
كل الطيور تقع في الشرك بأرجلها
وأنا الوحيد الذي وقع من رجله وعنقه .

ـ يا حلوتي . . . أودّ أن أسرّ لكِ بشيء
لكنني أخشى والدكِ .
يمنعني من ذلك كونكم أغنياء
وأنا رجل فقير الحال .
ـ لا بأس عليك أيها الفتى الجريء ،
فقل ما تريد قوله .
فكم من غني بات فقيراً ، وكم من فتاة ذات ثراء
نامت في أحضان حبيب فقير .

أرفع صوتي لأقول فاسمعي مقالتي:
تباركت الأم التي ولدتكِ ،
ألم توصك أمكِ حين ولدتكِ
ألّا تحرقي العالم .
فلتمتد النار من السماء
إلى الأرض ولتحرقها
لأنها تبعدكِ عنّي
وتحرمني من رؤياكِ .

أيّتها الجبال ، وأنتِ أيّتها الوديان
أبلّغكن النبأ . . . لقد فقدت حبيبتي .
أيّتها الحجارة ، أيّتها الشجيرات ،
هل مرّت بكنّ حبيبتي ؟
أيّتها القناطر الحجرية:
هل مرّت بكِ حبيبتي ؟
لقد تركتني أغطّ في نومي
وانسلّت هاربة مني .

يا عينُ ، بودّي أن أكحّلك
بالنار لكي تحترقي .
يا لسانُ ، أشتهي أن أقدّك
بسكين مغلول لتخرس إلى الأبد .
وأنت يا قلبُ ، أريد أن أمزّقك
بمدية حادة لتتخبّط كذبيحة تغرق في دمها ،
لأنك إن لم تكن صبوراً
فكيف تريد أن تكون عاشقاً ؟

لإثني عشر شهراً في العام
وأنا أكابد العذاب في عزلتي .
تمرّين ولم تسألي نفسكِ يوماً:
ليت شعري كيف حاله ؟
أتيتِ . . . ثم عاودتِ الرجوع
لحظة كنت أعاني سكرات الموت .
إن موتي سيكون من عشقي لكِ
ليخلو لكِ الجو بعدي .

مرّة واحدة وقعت في سوء التقدير
حين أصبحت راعياً عند الحبّ .
مع إشراقة الصباح إلى دلوك الشمس
كنت أرعى الحبّ .
تعبت... وعانيت
آلام الجوع والعطش كثيراً ،
فلا أنا استطعت استمالة الحبّ ،
ولا الحبّ فكّ أسري وعنائي .

تطلعين من البيت وعيناكِ تهمسان لي:
أنْ اعشقني .
فماذا يمكن لحبّي وحده أن يصنع
إذا لم تبادليني حبّا بحبّ ؟!
فالعشق بين قلبين محبين
ألذّ من طعم اللوز والسكر .
أمّا الحبّ من طرف واحد
فهو أصعب من لحظة النزع الأخير .

أيّها القنديل ، هنيئاً لك
فأنت تضيء أمام حبيبتي ،
وفي هذا الأمر سعادة لك
فأنت تراها أمامك .
أيّها القنديل أولى أن يكون لك
أذنان فتسمع شكواي ،
وتكون رسولي إلى محبوبتي
لتصلح ذات البين بيني وبينها .

في الليل كنت نشوان ،
وبعض من نعاس يحاول التسلل إلى أجفاني .
أسندت رأسي النشوان على الوسادة
فسرت حبيبتي الحلوة إليّ ،
لامست بخدّها ملامسة رقيقة خدّي
وهي تلومني بعتاب:
ويحك ، ألا تخجل ؟
عاشق وتنام ؟

في الليل انطلقت من بيتي
لأقابل صبية وأساقيها الخمر . . .
فالتقاني ملك الموت ونظر إليّ
كي يأخذني معه . . .
ـ يا ملك الموت الظالم
ما زلتُ يافعاً بعدُ ،
لكن تعال معي لأريك من يستحق
أن تقبض روحه وتدقّ عنقه:
من في يده الكأس
لا يشرب منها ، ولا يترك غيره أن يشرب ،
والصبية الحسناء في أحضانه
لا يغازلها ولا يسمح لغيره أن يغازلها .

عيناكِ نبع من الفضة
ومجمع للماء البارد ،
وأنا ظمآن فاسقني قليلاً من الماء
كيلا أموت من الصبابة . . .

يا زهرة النيلوفر
التي تحيا على وجه الماء ،
عبثاً تتذرّعين بالماء
فأنتِ ترتجفين من الحب .
سأمضي وأحبس الماء عنكِ
ليذوي قسمكِ العلوي ،
حينها أفجّر ينبوعاً من عينيّ يرويكِ
لكي تزهري من جديد .

وكأنّكِ أشبهتِ ليلى وأنا المجنون
أذرف الدمع وأنوح عليكِ .
أنتِ البحر وأنا
طير أبيض عطشان .
دنوت لأشرب قليلاً من الماء
فلطمت جناحيّ الأمواج .
أيها الموج الزاخر ، هأنذا أنأى بعيداً
ويظل في قلبي عشق البحر .

بالأمس كانوا يمضون بصبية
دون رضاها .
لقد غلبها الخاطب على أمرها قسراً ،
أو أغراها بأمواله .
فالحبّ الذي يشترى بالمال
أولى به أن يُحرق بالنار .
والحبّ الحبّ يكون بهدية من التفاح ،
أو بقليل قليل من السكر .

إذا كان الحبّ يُشترى بالمال
فاشتره ، ولا تظلّ خاوي الفؤاد ،
وإذا ما طلبوا روحك ثمناً له
فاعطها بلا جدال .
فتعال واقعد إلى جانبي
لأحدّثك عن سيرة الحبّ وأسراره ،
فلا أمتع من الحبّ ،
حتى لكأنّما تأكل لوزاً وسكراً .

أستحلفكِ بالله . حين تخطرين في مشيتكِ
لا تومئي بحاجبيكِ .
فلقد سفك هذان الحاجبان
دماء الكثيرين من خلق الله .
يا حبيبتي الصغيرة ، من أجل شمسكِ
لا تبكيني أنا اليتيم الشاب ،
ولا تلقي بي في ناركِ
فلن أستطيع احتمال البقاء .

تأمّلي هذا الصخر أمامكِ
وترفّقي بي ،
لا صلادة تعادل صلادة الصخر
ومع ذلك تأمّلي كيف يترك للماء مسيلاً فيه
مئة رطل قد يزن حجر الطاحون،
ومع ذلك يرتجف خوفاً من الماء ،
فكيف - وقلبي قطعة حمراء صغيرة -
يستطيع احتمال حبكِ ؟

هأنذا . . . أتنهّد حسرة ، وينزف دم الفؤاد
ألماً على المحبوب البهي كطلعة الشمس ،
بينما تنهداتي الشاكية تتعالى إلى السماء
ثم تسّاقط كالثلوج .
ليت شعري ، من رأى ثلجاً في الصيف
يتساقط على الفتى ؟
ترى أهو يهطل عليّ وحدي
أم عمّ الجميع ؟

هأنذا أذرف الدمع آونة الليل والنهار
ولا تكفّ عيناي عن البكاء ،
هجرت حبيبتي أحضاني
وشطّ بها المزار ،
فمددت يدي وأنا أصيح:
ـ لن أتركك تهجرينني وتذهبين .
فحلفت يميناً وقالت:
ـ أنا ماضية في طريقي ولن أبقى .

خرجت ويمّمت قصدي نحوكِ ،
وكنت أحسب أنكِ مشتاقة إليّ ،
ولكنكِ لم تهلّلي أو ترحّبي بقدومي
فندمت لمجيئي .
لا تبكي ولا تحزني ،
ولا تحسبي اليوم سنة ،
فالأقدام التي جاءت بي إلى هنا
قادرة أن تعيدني إلى مكان آخر .

عندما كنت يافعاً ، كانوا ينادونني:
«أيها الفتى الذهبي» .
كبرت ، عشقت ، وها هو لون وجهي يحول
فيسألني الشبان: لماذا يحول لون وجهك ؟
أيها الشبان: أقسم بشمسكم
إن الصخر لا يصمد للحب ،
فاستعدّوا له بحصن حصين
من الحجر والحديد وبابه من الفولاذ .

ما أصابك حتى غزا الشحوب ملامحك ؟
حبيبتك بصحة جيدة لم تمت
أو تسافر إلى بلد بعيد .
فإذا كان لا بدّ من حزين ينوح
فحُقَّ لي أن أنوح أنا ،
فأنا أعرف ما فقدت .
لقد هجرتني روح روحي
وتركتني جسداً خاوياً بلا حياة .

شاحب أنا كالبخّور ،
وقد أشبه لوني لون الزعفران .
ليت شعري ما السبب ؟
أهو حبّكِ أم أن أجلي قد دنا ؟
قالوا لي: عندكِ الدواء لعلّتي ،
فجودي عليّ به علّني أشفى ،
وإن لا تفعلي فسوف أموت وأفنى ،
وسيأتون ويقولون لكِ: «قاتلة» .

أنا اليوم جريح فلا تكلّمني
جرحي يؤلمني وكفاني ألمي .
سهم القدر أصاب مني مقتلاً
ووزن السهم أوقية واحدة .
فمضوا بي إلى الآسي يلتمسون
دواء لعلّتي ، فقال: إنه لن يعيش ،
لأن السهم أصاب شرايين قلبه
ومن عينيه تنزف الدماء .

يا صاحبي ، كذب الذين قالوا:
لا وجود لغير الحجل البرّي .
بالأمس رأيت حجلاً داجناً
فهنيئاً لمالكه ،
حاجباه كانا مرسومين بأناقة
والشهد يقطر من فمه ،
حين يضع الميت في حضنه
إذا به حي يرزق .

كنت أعبر الحيّ حين رأيتها
تتأنّق بالشموع ،
وتحت تلك الشموع
كان يغفو طفل عاشق ،
وعلى حين غرّة بدأت الشموع
تترنّم حزينة بأغنية ودموع قلبها تجري:
«الحبّ للفتى العاشق
ولي النار تحرق هامتي» .

إنّ المحبّ الذي يعشق
ولا يجد وسيلة لتحقيق مناه
فليحفر قبراً
ويدفن نفسه حيّاً فيه ،
ثم يكشف عن صدره
ليتصاعد اللهب البرتقالي منه ،
فيردد كل عابر من هناك:
«ها هو العاشق يحترق» .

إنني لطول إنشادي وغنائي قصائد الغزل
علّمت الحبّ للحجارة .
ومن المعادن النفيسة والجوهر
صنعت قوساً في السماء ،
على متنه تربّعت محلّقاً في الأعالي
أبثّ شكواي إلى الله:
أيها الإله . . . مرة واحدة ألقِ نظرة إلى الأرض
لترى المآسي الحزينة ،
فالفتى ابن السنوات العشر
ذوّبه الحبّ كما تذوب الشمعة ،
عظامه تحوّلت إلى فتائل تشتعل
ولحمه كالشمعة يحترق .

لم أجد إنساناً يستحقّ الرحمة أكثر
من عزيز قوم ذلّ .
كالذي يسافر إلى بلد بعيد
فلا أب ولا أم ولا أخوة لديه .
كلّما رأى صديقاً أو حبيباً
صدّ عنه ومضى سريعاً ،
أو هو كالشجر الوارف الخضرة
غزاه شحوب الخريف ،
تعرّى من أوراقه
فانحسرت من حوله الأفياء والظلال .

كنت أعبر الشارع حين رأيتها
جمجمة ملقاة على الأرض .
حين ركلتها قدمي
ابتسمت في وجهي
ثم استدارت وصاحت:
لِمَ فعلت ذلك أيها الفتى الجريء المغرور ؟!
بالأمس كنت مثلك
واليوم وصلت إلى هذه الحال . . .

أيها الإله الوحيد الأحد
العزلة تليق بك .
من تأخذه إلى جوارك في السماء
لن يستطيع إنسان أن يعيده إلى الأرض ،
والرزق الذي تقسمه لمخلوق
لن يستطيع إنسان أن يسلبه إيّاه ،
ومن يشرب من ماء الحياة
يظل خالداً إلى الأبد .

طاحت الفأس بشجرة العلّيق
وبدأت تحصد أغصانها ،
فقالت الأشجار بلسانها:
ـ ما العمل إذا كانت يد الفأس من أخشابنا ؟

هناك شجرة لها آلاف الأفنان ،
ولكن ـ كما أرى ـ ليس لها سوى ساق واحدة .
كذا شأن الفتى الذكي
الذي يكون عبداً للأحمق .
كالبحر الواسع هو الذكي الذي
يكسب الأنهار الكثيرة .
وكوعاء السمن هو الأحمق
إذا ملأته نقطة زائدة فاض على الأرض .

أعرني سمعك لأسدي إليك نصيحة
أنت العاقل الحصيف . . . فاسمعني:
لا تصادق الأحمق
ولو كان يحبّك ألف مرّة ،
فالأحمق كالجمر يحرق المكان
الذي يسقط عليه ،
أمّا الذكي الأريب فهو كالماء ،
حيث حلّ زرع الخير والخضرة .

هل تودّ أن تبقى شريفاً
ويحبّك الناس جميعاً ؟
إذن كن متواضعاً كالثرى
تطؤك خطوات العابرين .
فها هو الحديد بكل صلابته
يذوب في النار .
كن كالماء الذي
تخاف منه النار .

أيها الملوك والسلاطين والأمراء ،
يا من تحتلّون مكانة رفيعة ،
ما أكثر ما لديكم من الخدم
والأرقّاء والجيوش ،
وأنتم تسومونهم الخسف
وتستبدون بهم ،
ماذا لو حكمتم بالعدل بين الناس ؟
فأمامكم محكمة في اليوم الآخر .

حننت إليكِ واشتقت كثيراً يا حبي
وأنتِ تستحقّين كل ذلك .
من يأتني بكِ ويطلب روحي
سأهبها له بلا ثمن .
فما دمت أحيا ، أكابد الحزن
والأوجاع الكثيرة ،
إذن ، ما فائدة أن أحيا طويلاً
والشوق إليكِ يبرّح بي ؟!

لعنت الأم ولدها قائلة:

ـ رماك الله بالغربة ،

حيث ترمي بك المقادير في بلد غريب

فتعرف شقاء الغربة ،

وتكون وسادتك من حجر

وفراشك من رمل .

وفي الصباح حين تصحو باكراً

لا تجد أنيساً أو صديقاً حولك ، سوى الربّ .

من ينهر الغريب بكلام جارح
ليمتحنه الله بالغربة ،
فيحلّ في بلد بعيد يكابد مرارة الفراق
ويعرف معنى أن يكون الإنسان غريباً .
لو أمطرت السماء على الغريب
ذهباً في غربته
فالذهب عنده لا يساوي رماداً ،
فلا شيء لديه يعدل الأهل والأحباب .

سأقوم من مكاني وأودّعكم
فظلوا مكانكم بخير يا أصدقاء ،
سأترك عندكم حبيبتي وديعة
فصونوها بين الورود ،
وإذا ما عدت سالماً من رحلتي
فردّوا الأمانة إلى صاحبها ،
أمّا إذا قضيت في غربتي
فاقطفوا الورد واذكروا صاحبه .

ليس هناك شاب أو شيخ
لم تطأ قدماه روضة الحبّ .
ليس هناك طبيب يأسو جرحي ،
حتى وإن جار فلن يعرف الدواء .
من رسولي إلى حبيبتي
يحمل شكواي ويبلّغها حالي ؟
سأمضي إلى خالقي
وأنبّئه بالقدر الذي كتبه على جبيني .

من لا يرحم عذاب العاشق
حُقَّ عليه عذاب السعير .
وليُكتب عليه أن يجرّب
عذاب الحبّ حين تنأى به المسافات عمّن يحبّ .
فلا يجد سبيلاً للوصال في غربته ،
ولا يكفّ دمعه عن الجريان .

إنني أبكي آونة الليل والنهار ،
ترى هل تسمعني حبيبتي ؟
إنني أبكي بلا انقطاع ،
فتتساقط الدموع دماً من عينيّ .
من يأتني بخبر
عن وردتي البعيدة ،
كأنه سيعيد إلى جسدي الذابل
الحياة من جديد .

تفضّلت حبيبتي
وأرسلت تسأل معجبة:
كيف استطعت أن تصبر على بعدي
كل هذه المدة ؟!
ـ يا حبيبتي ، أقسم بشمسكِ:
جسدي براه الشوق
وبليت عظامي ،
وكان فيّ قطرة دم جفّفها حبّكِ .

كنت غصن درّاق
أنبت في الصخر .
جاؤوا ، قطعوني وساروا بي
وغرسوني في حديقة الآخرين ،
وصنعوا من السكر شراباً
وسقوني منه .
أيّها الأخوة ، تعالوا أرجعوني إلى مكاني
واسقوني بماء الثلوج .

صدر من سلسلة «روائع الأدبي الأرمني»

1 ـ «ملحمة المعري» للشاعر أويديك اسحاقيان
ترجمة: نظار ب . نظاريان ، 1994 ، 102 ص .

2 ـ «أنشودة الحياة الخالدة» للشاعر فاهاكن تافيتيان
ترجمة: المطران بطرس مراياتي ، 1994 ، 56 ص .

3 ـ «ليحلّ النور . . . وقصائد أخرى» للشاعر بارویر سيفاك
ترجمة: مهران ميناسيان ، 1995 ، 176 ص .

4 ـ «حبّة الرّمان ـ مائة قصيدة حبّ أرمنيّة» للشاعر ناهابيد كوجاك
ترجمة: مهران ميناسيان ، 1999، 128 ص .

سلسلة روائع الأدب الأرمني
4

عندما قَدِمَ الحبّ إلى الدنيا
جاء وحلّ في قلبي،
ومن قلبي
فاض إلى بلدان كثيرة من العالم.
ثم صعد إلى رأسي
فتبوّأ مكانة من عقلي،
وحين سال عينيّ دموعاً
انهمرت الدموع دماً إلى القاع.

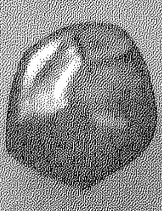

992
4
كو